



"إذا غامرت في شرف مروم

فلا تقنع بما دون النجوم"

- المتنبي -

محمود (البارودي) (١٨٣٩-١٩٠٤):

فارس السيف والقلم

ولد محمود سامي البارودي في ٦ أكتوبر عام ١٨٣٩م (١٢٥٥هـ) في حي باب الخلق بالقاهرة لأبوين من أصل شركسي ينتميان إلى السلاطين المماليك الذين حكموا مصر قرناً من الزمان. وكان أجداده ملتزمي إقطاعية إيتاي البارود بمحافظة البحيرة. يعتبر البارودي رائد الشعر العربي الحديث الذي جدّد في القصيدة العربية شكلاً ومضموناً، ولقب باسم فارس السيف والقلم.

أتم دراسته الابتدائية عام ١٨٥١م ثم التحق بالمرحلة التجهيزية من المدرسة الحربية المفروزة، وانتظم فيها يدرس فنون الحرب، وعلوم الدين واللغة والحساب والجبر، وتخرج من المدرسة المفروزة عام ١٨٥٥م ولم يستطع استكمال دراسته العليا، والتحق بالجيش السلطاني.

عمل بعد ذلك بوزارة الخارجية وذهب إلى الأستانة عام ١٨٥٧م وأعانتة إجادته للغة التركية ومعرفته اللغة الفارسية على الالتحاق بقلم كتابة السر بنظارة الخارجية التركية، وظل هناك نحو سبع سنوات ١٨٥٧-١٨٦٣، ثم عاد إلى مصر في فبراير ١٨٦٣م وعينه الخديوي إسماعيل معيناً لأحمد خيرى باشا على إدارة المكاتبات بين مصر والأستانة.

ضاق البارودي برتبة العمل الديواني ونزعت نفسه إلى تحقيق آماله في حياة الفروسية والجهاد، فنجح في يوليو عام ١٨٦٣ في الانتقال إلى الجيش حيث عمل برتبة البكباشي العسكرية وألحق بالأي الحرس الخديوي، وعين قائداً لكتيبتين من فرسانه، وأثبت كفاءة عالية في عمله. تجلت مواهبه الشعرية في سن مبكرة بعد أن استوعب التراث العربي، وقرأ روائع الشعر العربي والفارسي والتركي، فكان ذلك من عوامل التجديد في شعره الأصيل.

وبسبب فروسيته تلك- شعراً وحرباً- اشترك البارودي في الحرب التي قادتها مصر عندما عجزت الخلافة العثمانية عن قمع الثورة في جزيرة كريت عام ١٨٦٥، واستجدت بجيش مصر لإخمادها، فلبت الاستغاثة واستمر في تلك المهمة لمدة عامين أبلى فيهما بلاء حسناً، وأثبت فيهما شجاعة عالية وبطولة نادرة. وكان أحد أبطال ثورة عام ١٨٨١م الشهيرة ضد الخديوي توفيق بالاشتراك مع أحمد عرابي، وقد أسندت إليه رئاسة الوزارة الوطنية في ٤ فبراير ١٨٨٢م حتى ٢٦ مايو ١٨٨٢م.

بعد سلسلة من أعمال الكفاح والنضال ضد فساد الحكم وضد الاحتلال الإنجليزي لمصر عام ١٨٨٢ قررت السلطات الحاكمة نفيه مع زعماء الثورة العراقية في ٣ ديسمبر عام ١٨٨٢ إلى جزيرة سرنديب (سريلانكا حالياً).

ظل في المنفى بمدينة كولومبو أكثر من سبعة عشر عاماً يعاني الوحدة والمرض والغربة عن وطنه، فسجل كل ذلك في شعره النابع من ألمه وحنينه. بعد أن بلغ الستين من عمره اشتدت عليه وطأة المرض وضعف بصره فقرّر العودة إلى وطنه مصر للعلاج، فعاد إلى مصر يوم ١٢ سبتمبر ١٨٩٩م وكانت فرحته غامرة بعودته إلى الوطن، وأنشد أنشودة العودة التي قال في مستهلها:

أبابل رأي العين أم هذه مصرُ فإني أرى فيها عيوناً هي السحرُ

يقول الدكتور شوقي ضيف عن ريادة البارودي مصرياً وعربياً وحمله تاج الإحياء والتجديد:

"وبينما يعاني الشعر العربي في كل قطر من الأقطار العربية هذه المحنة- يقصد التكلس الشعري زمن المماليك والعثمانيين- التي تأخذ بأنفاسه، إذا مصر يقدر لها أن تكون أسبق الأقطار إلى النهوض به وبث الحياة فيه من جديد، لا عن طريق هؤلاء الشعراء وإنما عن طريق البارودي، الذي كان أمة وحده في عصره، والذي امتلأ طموحا بتحقيق مجد شعري تغنو له الوجوه، وقد ملك عليه الشعر قلبه، واستهوى لبه، فإذا هو يرفع لواءه، محرراً له من قيوده الغليظة، وإذا هو يحمل شعلته إلى الأجيال الجديدة، وسرعان ماتوهجت وهجاً لا نزال نعيش فيه إلى اليوم".

و كتب عباس محمود العقاد كتاباً عن (شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي)، وأفرد للبارودي فصلاً كاملاً، تناول فيه شعره بالدراسة والتحليل، وقرر- أي العقاد - أن البارودي من الشعراء الذين ارتفعوا بالشعر المصري- بل والعربي - ارتفاعاً لا يطاوله فيه أحد ممن سبقه، وعلل ذلك بأن الشاعرية مزية قد تتجم وحدها بين أقوام لا يقاربونها في العظمة.

يقول الأستاذ العقاد: "فإذا أرسلت بصرك خمس مئة سنة وراء عصر البارودي لم تكد تنظر إلى قمة واحدة تساميه أو تدانيه، وكنت كمن يقف على رأس الطود المنفرد فلا يرى أمامه غير التلال والوهاد إلى أقصى مدى الأفق البعيد. وهذه وثبة قديرة في تاريخ الأدب المصري ترفع الرجل بحق إلى مقام الطليعة أو مقام الإمام".

توفي - رحمه الله - عام ١٣٢٢هـ/ ١٩٠٤م.

وحري بنا - ونحن نتحدث عن البارودي- أن نذكر قصيدته المشهورة "أنشودة العود":

أَبَابِلُ رَأَيْ الْعَيْنِ أَمْ هَذِهِ مِصْرُ
فَإِنِّي أَرَى فِيهَا عِيُونًا هِيَ السَّحَرُ
نَوَاعِسُ أَيْقَظْنَ الْهَوَى بِلَوَاحِظِ
تَدِينُ لَهَا بِالْفَتَكَةِ الْبَيْضُ وَالسُّمَرُ
فَلَيْسَ لِعَقْلِ دُونِ سُلْطَانِهَا حِمَى
وَلَا لِفُؤَادِ دُونِ غَشْيَانِهَا سِتْرُ
فَإِنْ يَكُ مُوسَى أَبْطَلَ السَّحَرَ مَرَّةً
فَذَلِكَ عَصْرُ الْمُعْجَزَاتِ، وَذَا عَصْرُ
فَأَيُّ فُؤَادٍ لَا يَذُوبُ صَبَابَةً
وَمُزْنَةً عَيْنٍ لَا يَصُوبُ لَهَا قَطْرُ؟
بِنَفْسِي -وإنْ عَزَّتْ عَلَيَّ- رَيْبَةً
مِنَ الْعَيْنِ فِي أَجْفَانٍ مَقْلَتِهَا فَتْرُ
فَتَاةٌ يَرِفُ الْبَدْرُ تَحْتَ قِنَاعِهَا
وَيَخْطُرُ فِي أَبْرَادِهَا الْغُصْنُ النَّضْرُ
تَرِيكَ جُفَاةٍ الْقَطْرِ فِي أَقْحَوَانَةٍ
مُفْلَجَةِ الْأَطْرَافِ، قِيلَ لَهَا تَغْرُ

تَدِينُ لِعَيْنَيْهَا سَوَاحِرُ "بَابِلِ"
وَتَسْكُرُ مِنْ صَهْبَاءِ رِيقَتِهَا الْخَمْرُ
فَيَا رِيَّةَ الْخَدْرِ الَّذِي حَالَ دُونَهُ
ضَرَاغِمُ حَرْبٍ، غَابَهَا الْأَسْلُ السُّمُرُ
أَمَّا مِنْ وَصَالٍ أَسْتَعِيدُ بِأَنْسِهِ
نَضَارَةُ عَيْشٍ كَانَ أَفْسَدَهُ الْهَجْرُ؟
رَضِيتُ مِنَ الدُّنْيَا بِحُبِّكَ عَالِمًا
بِأَنَّ جُنُونِي فِي هَوَاكَ هُوَ الْفَخْرُ
فَلَا تَحْسَبِي شَوْقِي فُكَاهَةً مَازِحَ
فَمَا هُوَ إِلَّا الْجَمْرُ، أَوْ دُونَهُ الْجَمْرُ
هَوَى كَضْمِيرِ الزُّنْدِ لَوْ أَنَّ مَدْمَعِي
تَأَخَّرَ عَنْ سُقْيَاهُ لَأَحْتَرَقَ الصَّدْرُ
إِذَا مَا أَتَيْتُ الْحَيَّ فَارَتْ بَغِیْظُهَا
قُلُوبُ رِجَالٍ حَشَوْا مَاقِهَا الْغَدْرُ
يَظُنُّونَ بِي شَرًّا، وَلَسْتُ بِأَهْلِهِ
وَوَظَنُ الْفَتَى مِنْ غَيْرِ بَيْنَةٍ وَزُرُ
وَمَاذَا عَلَيْهِمْ إِنْ تَرَنَّمَ شَاعِرُ
بِقَافِيَةٍ لَا عَيْبَ فِيهَا، وَلَا نُكْرُ؟

أَفِي الْحَقِّ أَنْ تَبْكِي الْحَمَائِمُ شَجْوَهَا
وَيُبْلَى فَلَا يَبْكِي عَلَى نَفْسِهِ حُرٌّ؟
وَأَيُّ نَكِيرٍ فِي هَوَى شَبٍّ وَقْدُهُ
بِقَلْبِ أَخِي شَوْقٍ فَبَاحَ بِهِ الشَّعْرُ؟
فَلَا يَبْتَذِرُنِي بِالْمَلَامَةِ عَاذِلٌ
فَإِنَّ الْهَوَى فِيهِ لِمُعْتَذِرٍ عُنْدُ
إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلْحَبِّ فَضْلٌ عَلَى النَّهْيِ
لَمَّا ذَلَّ حَيٌّ لِلْهَوَى وَلَهُ قَدْرٌ
وَكَيْفَ أَسُومُ الْقَلْبَ صَبْرًا عَلَى الْهَوَى
وَلَمْ يَبْقَ لِي فِي الْحَبِّ قَلْبٌ وَلَا صَبْرٌ
لِيَهْنِ الْهَوَى أَنِّي خَضَعْتُ لِحُكْمِهِ
وَإِنْ كَانَ لِي فِي غَيْرِهِ النَّهْيُ وَالْأَمْرُ
وَإِنِّي أَمْرٌ تَأْبَى لِي الضَّيْمَ صَوْلَةٌ
مَوَاقِعُهَا فِي كُلِّ مُعْتَرَكٍ حُمُرٌ
أَبِي عَلَى الْحَدِثَانِ، لَا يَسْتَفِرُّنِي
عَظِيمٌ، وَلَا يَأْوِي إِلَيَّ سَاحَتِي دُعْرٌ
إِذَا صَلَّتْ صَالِ الْمَوْتِ مِنْ وَكَرَاتِهِ
وَإِنْ قُلْتُ أَرْخَى مِنْ أَعْنَتِهِ الشَّعْرُ